لم تكن مخالب إبليس - زينة صالح بدران

كنت في الثانية عشر من عمري حينما أتيت إلى أمي باكية وقت الغروب ،بعد ما أكملت جمع ما حدد لي أبي من مساحة أرض من القطن، أتيت وفي ثوبي بقعة دم، نظرت يمينًا ويسارًا هل جلست على شئ ما مجروح؟ لا شي سوى أن الدم يخرج بغزارة وتزداد البقعة في ثوبي الأبيض شيئًا فشيئاً، لوثت ما بيدي من قطن أتحسسه بين أصابعي الصغيرة كأنهار آثار خطيئة كتبت علي اليوم، ذهبت إلى الترعة راكضه لأتخلص منه بان لونه المخيف في زرقه الماء كلما حاولت أن أتخلص منه لايزال يكبر ويتسع، قدماي ترتجفان وثوبي مبتل وهناك ألم في أسفل خاصرتي كأن شيئا ما في جوفي، تحركت في عقلي حكايات نساء الحي حينما كن يتكلمن بينهن بخبث إذا رأين إحدى الفتيات تختلط مع الأولاد في الحي أن إبليس سيكون معهم ويخترق جوفها ويمد مخالبه إلى بطنها ويزرع طفل الرذيلة وستكبر بطنها شيئًا فشيئًا، وسيكتشف أهلها ذلك وستنحر وتدفن تحت أكوام القطن المتعفنة دون كفن ولا جنازة، إزداد الخوف أكثر في قلبي تذكرت قبل يومين كنا سويًا أنا وحسان في سواقي القطن جاء ليساعدني فإن أبي لا يغفر لي إن بقيّت حصتي من جمع القطن للصباح الباكر، نظر إلي بعيناه البنيتان وابتسم رغم أني كنت أضحك بوجهه ليس حبًا له لكن لا أصبر إن رأيت أسنانه المتساقطة التي كلما سألته عنها قال لقد أكلتها الفأرة ويضحك، لا أذكر أن إبليس كان معنا ولا حتى رأيته، دخلت إلى البيت وأنا أرتجف وأجمع أطراف ثوبي وأضعها بين فخذي علي أن أتمالك نفسي حتى لا أسقط مغشيًا علي، في باحة المنزل حاولت أن أدخل دون أن يراني أحد،

وآخذ ثوبي من حبل الغسيل وأتسلل إلى غرفتي لكن أمي لمحتني تجاوزتها وسارعت الخطى إلى الدار فإذا بها تصرخ خلفي

- سعاد أين كنتي لهذا الوقت ألم أمنعك من اللعب في الحي بعد الرجوع من المزرعة؟

صمت وأسناني تصطك أحدهما بالآخرى ودموعي لا تهدأ أبدا ولم أشيح بنظري عن الأرض، أمي لا زالت تنادي خلفي لكن لا أستطيع النظر إليها؛ خشية أنها ستعرف كل شيء.

- ألم أتحدث معك، ما بك بلعتي لسانك وتجمدت في مكانك؟

اقتربت مني ووقفت أمامي وهي صامته وأطراف أناملها الخشنة من طحن الرحى تتلمسني بخوف كأنها تتلمس شيئا دنس وقالت

- سعاد أنتِ فعلتيها وكسرتي وجهي قولي لي من دنسك؟

صارت تبكي وشذرات دموعها تكاد تضيء على وجنتيها المحروقة من الشمس والداكنة كرغيف الخبز الذي يعطى بمنيه لمشرد أعمى في ظلمات الطريق، أردت أن تخرج الكلمات من فمي لكن ماذا أقول لا أعرف أي لغة صارت تتحدث بها كأنني لا أعرفها وليست أمي التي طالما كانت إلي الملجأ الوحيد وعطرها يعادل مسك الحياة بأكملها، صارت تتمتم بكلمات تارة تخفض صوتها وتارة ترفعه حتى أجتمع أخوتي الصغار من خلف الأبواب بنصف وجه ينظرون إلينا كأننا في مشهد مسرحية.

- كنت دائما أقول لعبد العزيز أخذك الفتاة معك للمزرعة سيفسدها، ستجلب لنا الخطيئة لكنه لم يسمع، أخذت يدي بقوة إلى الغرفة وصرخت في أخوتي

- أخرجوا إلى الغرفة الثانية وأحذركم إذا أسترق أحد السمع أو وشي لأبيه عما رأيتموه الآن

- هيا تكلمي من فعلها بك؟ وتصفعني بقوة على كل جزء من جسدي، كنت لا أعرف عما تتحدث عنه، أيمكن أن يكون لقائنا أنا وحسان قد جلب لنا إبليس ومد مخالبه في جوفي وزرع طفل الرذيلة، وهذه الدماء التي تخرج من جسدي هي آثار مخالب؟

حركت شفتاي بعد عناء طويل مع تكسر الأحرف في لساني الثقيل نطقت ببطء

- أمي...لم يكن إبليس معنا عندما كنت أنا وحسان في سواقي القطن هذا المساء.

كادت تموت من الصدمة وشهقت بصوت عالي وقالت

- حسان نفسه! لم أتوقع، كان آخر ما فكرت به أن تكوني يومًا عروسًا لمجنون يتلقاه الصبيان صباحا ومساء بالحجارة كلما مر بأحياء القرية.

ضربتني ضربًا مبرحًا خالٍ من رحمة الأم التي كل حنان الأرض بين أحضانها وخرجت، تركتني أنام في الغرفة المظلمة حتى الصباح وحدي، بكيت ولم أدرك أن أمي يوما ما ستقسو علي لهذه الدرجة وكأنني عدوتها، أرى عيون الظلام تأكلني وأضع رأسي تحت غطائي، علي أن أهرب منها فأواجه الظلام أكثر قربًا، في الصباح كعادتي أرى الصبيان يذهبون إلى المدرسة البعيدة سيرا على الأقدام، أو على عربة تجرها الحمير حتى آخر الجسر

الخشبي في القرية، فيأتيهم الباص الأصفر أسمع صوته كل صباح عدا يوم الجمعة، كثيرا ما أردت أن أكون معهم لكن أبي لا يسمح لي، منذ أن أبصرت عيناي هذه الحياة وأنا من موسم زراعة الذرة إلى موسم جمع القطن، لا تعرف يداي نعومة كباقي الأولاد، كان أبي يعلمني على زراعة الذرة الصفراء يعطيني ثلاث بذرات ويقول إمسكيها بأصابعك الثلاث؛ الابهام و السبابه والوسطى بقبضة محكمة ثم قومي بغرسهم في الأرض، كانت أصابعي مجاهدة فلم تأبه للحجارة الصلبة التي تعترضها ولا الأشواك المدفونة، ولا بقايا الحشرات المختبئة من برودة الشتاء أو حر الشمس، كانت أصابعي تغرس البذرات وتخرج وفيها على ما يقارب خمسة خدوش، كنت أضعها في فمي حتى تهدأ وأعاود الغرس مرة أخرى، لقد كبرت قبل موعدي ولا يرافقني سوى حسان المختل عقليًا الذي يكبرني بسبع سنوات، وتقول أمي أنه دنسني في حقل القطن، فقد كانت آثار الدماء على ثوبي ليلة أمس كافية لتثبت لها أن إبليس وضع أنيابه على جسدي، أخرجت رأسي لأتفحص المنزل فليست عادة أبي أنه لم يوقظني قبل طلوع الشمس ونذهب سويًا إلى الحقل، أبي ليس موجودًا وأمي تعد الرغيف لأخوتي الصغار وتطعمهم بيدها ما أن أقتربت منهم وسألتها:

- أين أبي ولم لا يوقظني معه؟ قالت وهي لم تنظر بوجهي حتى

- أخبرته أنك محمومة ولم تستطيعي أن تذهبي اليوم وأكملت قائلة

- هاك فطارك كلي بسرعة لدينا اليوم مشوار إلى السوق، رغم مآبي من حزن من ليله أمس لكن عندما سمعت "سوق" فرحت

جدًا لأنني كنت دائمة الشوق للذهاب إليه مع أمي، تكتفي أمي بوضع سلة البيض على رأسها كل خميس من الأسبوع وتجر أخي الصغير خلفها ويذهبان إلى السوق، تأتي لنا بثمن البيض بعض الحلوى وسمن وبعض حاجيات المنزل، تجمع أمي ما تبيضه الدجاجات لأسبوع ثم تبيع البيض هناك، أكلت رغيف الخبز على عجل وركضت مسرعة إلى حذائي الذي يحتوي على ألف خيط من كل لون يتمزق؛ فيخيطه أبي لي ويقول لايزال صالحا أنظري، سنذهب في العيد وأشتري لك واحدًا جديدًا، أتى العيد وذهب وأتى آخر ولم يجلب لي أبي واحدًا بعد، لكن رغم ذلك بيني وبين هذا الحذاء علاقه صداقة قوية؛ فهو دائمًا ما يكون وفيًّا ويصد عني تلك الأشواك القاسية، على الرغم من محاولاته لكن هناك منها ما يقهره ويدخل إلى قدمي، فأجلس وقت الإستراحة أستخرجها بصعوبة بشوكة النخل المدببة، أتألم لكن لابأس أنسى سريعًا وأعاود العمل، إرتديت حذائي وجلست أنتظر أمي بفرح رغم أن نظرتها اللاذعة لي لا زالت من الأمس، لم يزل غضبها مني كما لو كنت أنا من أختار اللون الأحمر للدم لو كان بيدي ما اخترته، ربما سأختار الأبيض أو الأسود حتى لا تحزن أمي هكذا، ذهبنا سويًا إلى السوق وكل دقيقة أتخيل كيف سيكون شكلة، هل فيه ألوان! هل فيه باصات صفراء مثل التي تأخذ أطفال القرية إلى المدرسة، هل هناك ثياب جميلة، هل سأجد الحذاء الذي وعدني أبي به؛ سيجلبه في العيد؟ ربما سأجد العيد هناك أيضا، لكن وددت لو أنني ما آتيت إلى هنا، أمي تمسك يدي بغضب وتجرني إلى حيث لا أعلم وأنا أنظر يميناً ويساراً من هول ما أرى؛ ناس كثيرة، ووجوه شتى، وجوه بيضاء وأخرى سمراء ولا تعلم من فيهم أبيض السريرة، ألوان وأحذية لم أحلم أن أراها يومًا، في السوق فتيات بعمري يرتدين الملابس البراقة، نظراتهن

كادت تقتلني لا أعرف لما! ربما الخرقة التي رقعتها أمي في ثوبي لا تناسبه لأنها ليست بلونه، لايهم فقد يبدو جيدًا فلونه داكن لا يجلب البقع الحمراء إلي مجددا، كنت أبتسم في وجوه المارة ولكن عيونهم كالسهام القاتلة، أحدهم يرمقني بغضب والآخر بشفقة، تفاصيل كثيرة، أكثر ما أذكر منها أن أمي قطعت علي سلسلة التأملات بطرق باب خشبي في زاوية ما من السوق فتحته امرأة بدينه ترتدي حلي كثيرة وتضع الكحل في عينيها بطريقة مخيفة وقالت بصوت فض

- نعم ماذا تريدين؟، أنتم المتسولون لقد ازعجتمونا بطرق الباب كل ثانية.

قالت أمي:

- لا لسنا متسولين لدي من المال ما يكفي أتيت لأرى الجدة

فأجابت تلك المرأة

- أنها هنا هيا أدخلي بسرعة، وضعي نصف المبلغ في هذه العلبة.

فتحت أمي كيسًا من القماش تعلقه بخيط أسود في رقبتها وتضعه تحت ثيابها، أخرجت منه بعضًا من النقود لا أعلم كم عددها فأنا لم أدخل المدرسة، أجيد العد حتى العشرة على عدد أصابعي، لكنها تبدو كثيرة، قد ملأت كف أمي جيدًا، دخلنا إلى الدار نتبع المرأة البدينة، أدخلتنا إلى غرفة كبيرة شبه مظلمة تعج بالبخور والشموع في كل مكان، وفيها نساء كثيرات وأطفال يبكون وفتيات باعمار مختلفة، لكنني أصغرهن سنا، وفي آخر الغرفة تجلس عجوز تدعى الجدة، تضع على رأسها عصبة سوداء وتتدلى على كتفيها جدائل بيضاء غزاها الشيب وأمامها موقد فحم وستار من

القماش، اختلست النظر قليلاً خلف الستار مفروش بصوف كبش، جلسنا مطولا أنا وأمي حتى نادت الجدة بإسم أمي

- حليمة، حليمة أين أنت أقتربي هيا ماذا عندك؟ أشارت أمي لها أنها لا تستطيع أن تتكلم أمام النساء هل لها أن تحض ببعض الخصوصية؟

بعد صمت ونظرات مخيفة منها وافقت الجدة أن تكلم أمي داخل الستار، ما أن دخلنا إلى هناك تمتمت أمي لها ببعض كلمات وإذا بها تصرخ في وجهي

- عديمة الشرف لقد أغواك الشيطان وأبناء إبليس أليس كذلك؟ هيا تعالي إلى هنا نامي وأرفعي عنك ثوبك.

أشارت لأمي بالخروج، كنت أتمسك بطرف رداء أمي بقوة، نزلت من عيني دمعة ساخنة، لكن أمي خيبت ظني وأصبحت تشبهها أيضا، نظراتها مخيفة وقاسية كالحجارة التي أصادفها في الحقل يوميًا، مسكت يدي بقوة وأفلتتها وخرجت، بقيت لوحدي معها، شكلها المخيف جدا عرفت لما صراخ الأطفال هنا بلا سبب يملأ المكان، تسمرت في مكاني لا أعلم ماذا تريد لكنها صفعتني على وجهي بقوة ورفعت ثوبي إلى أعلى بطني ومدت يدها كانت ناعمة وباردة صبت قليل من الزيت من القارورة التي في الرف بجانبي مسحت به يديها وهي تنظر إلي بإبتسامة ساخرة أغمضت عيني حتى أتجنب رؤيتها واستسلمت لما يجري، لا أعلم ماذا فعلت وما الغاية منه، لكنها لم تضع سوى بضع قطرات زيت ودلكت بها بطني لمدة ثانيتين ثم أمرتني بالذهاب دون أن أتحدث عما جرى بيننا هنا حتى لأمي وهددتني إذا فعلت وأخبرت أمي

ستقتلني، نهضت بسرعه كسجين أطلق سراحه، نادت الجدة على أمي

- حليمة تعالي إلى هنا.

لا أعرف ماذا قالت لأمي حتى أنها كادت تدفنني تحت قدميها، أرادت أن تنبذني كما لو لم تلدني يومًا، كيف للأمهات أن يكن أكثر قسوة من العالم الذي ولدنا به، وكأن يدها لم تمسح رأسي ولم تقل لي أنني فلدة كبدها ولم تخبأ لي قطعة زائدة من الحلوى دون إخوتي، لا أعرف ماذا قالت لها تلك العجوز حتى تنسى بلحظة ما كان بيننا من ود وحب، سمعت ما دار بين أمي والعجوز من كلام وعلمت أن أمي ستزوجني إلى شخص من طرف هذه العجوز دون أي مهر فقط أنه سيسترني ويقبل بي بدنسي وخطيئتي، وافقت أمي دون أي إعتراض وحددت العجوز الميعاد غدا بعد الظهر سيزور بيتنا وسيأخذني معه، من هو وكيف يكون شكله وهل سيقبل أبي بذلك، ماذا فعلت حتى أذهب مع شخص لا أعرفه؟ لكنني لازلت صغيرة كنت أحلم أن أذهب إلى المدرسة مع الفتيات لا إلى الزواج، أسئلة كثيرة في بالي تزدحم، إنتظرت أن نخرج من بيت العجوز حتى أسأل أمي

- ماذا فعلت حتى تطلبي منها أن ترسل إلي عريسًا، هل مللت وجودي! هل المال لا يكفي لتطعميني؟

أوعدك لن أكل سوى وجبة واحدة في الصباح، ولن ألتقي بحسان مرة أخرى ولن أطلب حذاء جديد وسأجمع القطن بدلا من لوحين أربع، فقط دعيني عندك لا أريد أن أذهب مع أحد لا أعرفه، رأيت في طرف عين أمي دمعة صغيرة مختبئة تطردها الجفون بقسوة، ظننت أنها ستأخذني لحظنها وترفض ما قالته لها تلك العجوز

لكن مسحت دمعتها بسرعة وصرخت في وجهي، "أصمتي" وأخذت بيدي مسرعه إلى البيت، إجتزت السوق ولهفة النظر إليه لم تكن كما دخلته، لقد مات كل شيء داخلي، كيف أحتمل فكرة أن أمي ستتخلى عني لرجل لا أعرفه ولم يفصلنا عن غدٍ سوى ليل وفجر، تمنيت أن يكون الطريق إلى البيت أطول مما حسبت من خطوات، أطول من أن يراه بصري أخاطبه أرجوك أمتد لأبعد مما ترى عيناي، ليته كالسراب، كانت أمي على طول الطريق شاردة الذهن كل ما مسكت بطرف ردائها تسرع الخطى وألهث ورائها راكضه فتفلت يدي منها، ما أن وصلنا البيت قبل الظهر إستقبلنا إخوتي الصغار فرحين كل ظنهم أن أمي جلبت لهم الحلوى مثل كل مرة تذهب بها إلى السوق لكنها لم تفعل، بدل أن تشتري لنا كل مرة الحلوى، أنفقت نقودها لتلك العجوز، مرت الساعات كأنها تهرب وتلعب معي لعبة الغميضة أتى العصر سريعًا وجاء معه أبي منهكًا من العمل جاء يتفقدني يبحث عني ليطمئن على صحتي؛ فقد أخبرته أمي صباحًا أنني محمومة، صاح في المنزل

- سعاد حبيبتي أين أنت؟ إن الوقت يمضي بطيئًا من دونك اليوم، حسان يسأل عنك أخبرته أنك مريضة وقطفت لك بعض أعشاب البابونج حتى تشربيها وتشفين سريعًا وسنذهب سويا إلى الحقل.

بقى يردد إسمي "سعاد" "سعاد" ويبحث في أرجاء المنزل أنا أضع رأسي بين قدمي وأتكور كالجنين في زاوية مظلمة من الغرفة لا أريد أن يراني؛ فلست محمومة ولا أعرف ماذا تخطط أمي، أبي يعاود الكلام

- حسان جاء صباح اليوم مبكرًا يسأل عنك حزن عندما قلت له أنك مريضة

ما أن سمعت أمي أسم حسان وقد جن جنونها، جاءت مسرعة وأخذت بيد أبي إلى الغرفة الأخرى، كنت أشاهد كل هذا من خلف الستار الذي نضعه لكل غرفه في بيتنا فنحن لا نملك ثمن شراء الابواب ، دخلا حتى سمعت صوتهما يزداد أكثر فأكثر حتى أن إخوتي الصغار هرعوا فزعًا إلى حضني، لا نعلم ما يدور هناك لكن لا يبدو أن كل شيء على ما يرام، بعد عدة دقائق خرج أبي ووجهة كئيب وكأنه قائد إنهزم في معركة مطأطئًا رأسه إلى الأرض ويتعثر وكأن ثوبه ازداد طولا عليه، ودخل إلى غرفته دون أن يتحدث بشي وكأن صوته إبتلعته جدران الغرفة، خرجت أمي تتبعه حالتها ليست بأفضل منه، ركض إخوتي لها فزعين حضنتهم بقوة ودخلوا جميعهم إلى الغرفة الأخرى دوني، لحقت بهم فإذا أمي تشير بيدها إلي حتى أذهب إلى الغرفة الأخرى، رجعت مكسورة الخاطر تخنقني عبرات من الدموع إحتضنت الأغطية وجلست وحيدة؛ لما أعامل هكذا كأنني خطيئة في هذا المنزل!

هدوء قاتل كسره صوت الشيخ عبد الحفيظ يؤذن لصلاة المغرب، صوته الجميل أعاد إلى قلبي الطمأنينة بعدما فقدتها من أقرب الناس إلي، إستمعت لصوت الآذان بألم وهو يقول "الله أكبر" ،"الله اكبر" غفوت وأنا أستمع لصوت الأذان صحيت على جملة الشيخ عبد الحفيظ الأخيرة "والحمد لله رب العالمين"، نهضت إلى الحوض المملوء بالماء في باحة منزلنا أملأ إبريق الماء لأبي لكي يتوضأ إنتظرته ولم يأتي، كعادتي أصلي خلف أبي عندما نعود سويًا من الحقل وإذا أذن ونحن هناك كنا نتوضأ من الترعة

ونفترش الأرض ونصلي،كان أمامي وأنا خلفه أسمع تمتمته وابتهالاته لكن لا أسمع جيدا ماذا يقول ويفعل تلك الحركات التي حين يؤديها لا يبتسم ولا يلتفت، ثابت كجذع نخلة، أخذت بعض الماء وغسلت وجهي وكفي ومسحت رأسي وقدمي كما يفعل أبي دائمًا عندما يتوضأ للصلاة، إرتديت جلباب الصلاة وإستقبلت القبلة رفعت صوتي وقلت "الله أكبر" وإذا بأمي تصفعني وتقول

- تريدين الله أن يغفر لك، أم لتحل اللعنة علينا حتى ينقطع رزق والدك المسكين، هناك يرتعد تحت الاغطية، لا أعلم يرتعد خوفًا أم مرضًا، لقد أخبرته بكل شي، وافق على زواجك من الرجل الذي سيأتي غدًا بعد الظهر.

وانا أتحسس حرارة الصفعة قلت لها بصوت مكسور

- لكن ماذا أخبرتيه عن أي شي، كيف سيقبل أن يزوجني لهم!

وبقيت أبكي ووددت لو حاورتها لأفهم لكنها لم تأبه وأطفأت الفانوس بنفخة واحدة وتركتني الوذ بجدران الغرفة عل أحدهم يجبني، وحدي مع جوع البطن للأكل وجوع الروح إلى الأمان، كل من في البيت نام تلك الليلة بلا عشاء، أطفأت أمي جميع الفوانيس في المنزل إلا غرفة أبي كان فيها بصيص ضوء خافت، وأنين مكتوم لأبي تحت أكوام من الأغطية، كانت ليلة قاسية لم أنم حتى الفجر، فكرت مطولا ماذا سيحدث غدًا؟ هل سأودع كل شي هنا، حتى هذا الظلام الذي طالما أخافني إحتضنني للمرة الأخيرة الليلة مودعًا ويشهد دموعي، كان الوحيد بينهم من أثبت وفائه، كثيرًا ما تتخلى عنك الأشياء التي راهنت على أنها سترافقك للأبد تخذلك من أول موقف، لتصحو وبجانبك من ظننت أنه من الكارهين، لطالما أبكتنا نهايات الطرق التي أضحكتنا

بداياتها كثيرًا، وعضضنا أصابع الندم لأشياء لم نخطط لها بدقة، تأتيك الحكمة متأخرة لتصفع وجهك لكن لم يتبقى وقت لنصلح مافسد، بقيت أراقب صوت الديك وهو ينذر بقدوم الصبح وأول خيوط الفجر التي قهرت سواد الليل منتصرة ودعت الخسارات لنا نحن البشر، جاءت أمي أغمضت عيناي مدعيه النوم بعمق، أيقظتني مثل كل صباح ضننت أنها نسيت ما جرى من الأمس وسأذهب مع أبي إلى الحقل، عندما سألتها:

- أين أبي؟ قالت

- إنه ذاهب إلى الحقل ليس جديد عليك أن والدك لم يتغيب عن حقل السيد كريم يوم؛ وإلا سيطرده ويأتي بألف من أمثاله، رجل مثله لا تنطلي عليه أكاذيب المرض لا يعرف في حياته سوى المال.

إلتزمت الصمت، وطلبت مني أمي أن أجلس مع إخوتي على الإفطار وكأن شيء لم يحدث كعادة الأيام التي مضت، تناولت فطوري معهم وكنت سعيدة لأن أمي لم تنظر إلي تلك النظرات التي طالما أخافتني منذ يومين، أكلت ببطء وأنا أنظر إلى أمي وهي مشغولة بتقطيع الخشب في الموقد وتضع عليه قدرًا كبيراً مملوء بالماء، ما أن تصاعد منه البخار حتى وضعته جانبًا، دخلت إلى غرفتها وأتت بصُرَّةٌ بيضاء اللون وبعض الصابون ودخلت بهم إلى الحمام وخرجت بعدها أخذت قدر الماء إلى هناك وأنا أترقب ماذا تفعل حتى نادتني إليها، أتيت وكان كل ظني أنها هي من ستغتسل وأرادت مساعدتي في شيء ما، لكن ما أن دخلت إلى الحمام وجدتها تنتظرني جالسة على منضدة خشبية صغيرة وأمامها إناء كبير نجلس فيه عندما نغتسل، قالت لي:

- هيا أقتربي

فاقتربت منها أمسكت جدائلي برفق وصارت تفتحهن ببطء شديد وتشمني وتبكي، كأن اللقاء الأخير بين يديها وجدائلي التي طالما دللتها أناملها، خلعت ملابسي ببطء أحسست بالخجل فلم ارفع رأسي، فهي منذ مدة طويلة لم تدخل معي الحمام لكنها المرة الأخيرة على ما يبدو، جلست في الإناء وصبت على جسدي الماء غسلتني كما لو أنني أولد لأول مرة بين أحضانها، أكملت غسلي على عجل وأخرجت من الصُرَّةُ البيضاء ثوبا رأيته للمرة الأولى أبيض فيه شذرات جميلات يعكسن لون الشمس إلى بريق متناثر مثل الثياب التي رأيتها معلقة في السوق البارحة، ألبستني إياه، لكن فرحتي لم تكتمل به فإن أكمامه طويلة علي وليست بمقاسي لكن أمي راضية عنه على ما يبدو، قالت بحزن:

- لم تنتظري يا سعاد حتى يكون في مقاسك وترتدينه أقبلي به كما هو، جزائك هذا.

وأكملت تمشيط شعري تحت دفء الشمس في باحة المنزل، أبي لم يعد إلى الآن، هناك في قلبي شوق له أود لو أحضنه وأبكي بين ذراعيه أشكو له قسوة أمي وددت لو يكون بجانبي عندما نلعب أنا وأخواتي على ضوء الفانوس ويكون هو في صفي ضدهم، لكنه لم يأتي، أتى الظهر سريعًا أمي طلبت مني أن أكون هادئة حين يزورنا الضيوف، وأنفذ كل ما تطلبه مني، كانت تجمع ملابسي في الصُرَّة وتقول:

- سعاد إنها فرصتك الأخيرة قبل أن يغير أباك رأيه، فرصتك الأخيرة قبل أن تدفني تحت التراب.

لم أكن أفهم ما كانت تقصد لكن حبي الشديد لها جعلني أنفذ كل ما تمليه علي، كان منزلنا يزدحم بصوت الدجاج الذي كانت أمي تربية لأجل البيض حتى تبيعة كل خميس في السوق؛ لتغطي مصاريف بيتنا، والسبب الرئيسي كان لتأمين دخول أخوتي إلى المدرسة بعد سنتين أو أكثر، تجمع كل النقود لهم، عندما أسألها لما لم تجمعي لي حتى أذهب معهم إلى المدرسة أيضا كانت تقول أنهم ذكور وأفضل مستقبل منك أريد أن أرى حبيبي كامل دكتورا حتى يجني الكثير من المال لنا؛ ونشتري حقل القطن كله ولم نعد خدمًا وفلاحين للسيد كريم، سنشتري حقل القطن كله، وأريد هاني أن يصبح معلمًا مثل السيد عادل، الله ما أجمله بزيه وكتبه وعصاه الطويلة تحت أبطه ونظاراته التي تظهر عينيه مستديرة، قطع صوت الدجاج سلسة ما كان يدور بيننا أنا وأمي من أحاديث ماضية حول موقد الفحم ليلاً ونحن نعد ماجنته من نقود من بيع البيض؛ لتؤمن دخول أخوتي إلى المدرسة، صوت الدجاج كان ينذر بدخول غريب إلى دارنا، ذهبت أمي مسرعة وفتحت الباب الخارجي وأنا أنظر من بعيد، دخلت امرأة بدينه مع رجل يرتدي ملابس كما التي يرتديها السيد عادل المعلم، المرأة نفسها من فتحت باب منزل الجدة عندما ذهبنا إليها، شعرت بخوف مريع، قدماي لا تحملني ودقات قلبي بدأت تخفق بشدة، لا أريد أن أعود إلى هناك لا أريد أن أعيد تجربة الدخول لتلك العجوز، رحبت أمي بهم مجبرة رفضا أن يجلسا حتى قالت المرأة البدينه:

- نحن على عجل من أمرنا، ناديها فلتسرع.

كانت تقصدني، بقي الرجل واقفًا عند الباب وجاءت المرأة مع أمي نحو غرفتي، ركضت مسرعة وجلست بهدوء وأنا أرتدي الثوب الذي ألبستني إياه أمي، وأنا أتعثر بطوله وأدفع أكمامه عن

ذراعي، وجدائلي تتدلى على كتفي، دخلت أمي وتتبعها البدينه ونظراتها تأكلني، مدت يدها على خدي وابتسمت ابتسامة ممتزجة بخبث ثم تلمست جدائلي والثوب الذي أرتديه، ثم أدخلت يديها من جيب ثوبي ومدت يديها إلى صدري تلمسته ذعرت حاولت منعها فقالت:

- نعم إنك صالحة للزواج، تبدين يافعة، لا تخافي الفتيات أمثالك لا يستحقن العيش، أحمدي الله الجدة أنقذتك من موت محتوم، هيا ودعي أمك وأجلبي معك القليل من الملابس وأسرعي؛ فإن السيد ينتظر في الخارج لديه أعمال أخرى أهم منك.

ما أن خرجت حتى إحتضنتني أمي بحرارة، بكت طويلاً على كتفي وبكيت معها وبقيت تلثم وجهي بالقبل حتى تذوقت طعم دموعي، مسكت وجهي الصغير وقالت:

- لا تخافي، وسامحيني لم أحتمل فكرة قتلك، أردت أن تعيشي حتى لو لم تكن حياة سعيدة، فقط أهربي من هنا، يبدو عليه رجل كريم ستتزوجين وتنجبين أطفالا ويملأون حياتك، لا وقت لدي لتبقي معنا ستظهر بطنك عاجلاً أم آجلاً.

قطعت المرأة حديثنا وصرخت،" هيا أنت " دخلت دون استئذان وجرتني خلفها وبيدي صُرَّة ملابسي التي جهزتها أمي لي سابقًا، لم أحظى بتوديع أخواتي، أبي كيف يعقل أنني لن أراه مجدداً لم نتفق على ذلك! كيف أذهب ولم تشبع عيني من ملامح وجهه التي أعرف تضاريسها وتعرجاتها بعمق! وددت لو يقتلني فإن الموت بين يديه حياة، كفي الصغير لم يكبر إلا وكفه الكبير يحضنه، سيأتي العيد وسيجلب لي الحذاء الذي وعدني به ولن يجدني، سيلعب معه أخواتي الغميضة ليلاً وسيخسر لأنه لا يجدهم إلا

بمساعدتي، لن يجد من يعد له إبريق الماء ليتوضأ ولن يقبل نحري ويضعني في فراشي عندما أغفو بحضنه متعبه من عمل الحقل.

أكملت حديث النفس مع أمي بالنظرات الأخيرة ،وأكملت خطواتي نحو الباب أجري خلف المرأة، السيد يبدو عليه سأم الانتظار فسبقنا إلى السيارة جالسًا في المقعد الأمامي مع السائقً، دخلت السيارة ولم أحظى بنظرة أخيرة إلى دارنا، إلى أمي وأخوتي ولا حتى أبي، جلسنا معًا أنا والمراة البدينه إلى الخلف وأنا أنظر من الزجاج الخلفي للسيارة إلى الوراء عل أمي توقفهم وترجعني إلى أحضانها لكنها لم تفعل، سارت بنا السيارة مسرعة حتى جسر القرية الخشبي، عبرته ببطء، كنت ألتفت كل دقيقة إلى الوراء حتى استسلمت أن لا أحد من أهلي سيتبعني ويعيدني إليه، بكيت بصمت واحتضنت ملابسي بقوة فإنها آخر ما تبقى لدي من رائحة أهلي، تمعنت النظر لكل من في السيارة السائق لا ينبس شفتيه، والرجل الذي في المقدمة كل فترة أثناء الطريق وهو يحرك المرآة التي أمام السائق نحوه ويرمقني بنظرات لا أفهمها، أطأطأ رأسي فأرى حذائي القديم تحضنه أصابع قدمي بقوة وخوف، كل شيء في جسدي يود العودة إلى الوراء إلى هناك حيث أبي، إلى حقول القطن، تذكرت ألم أشواك الحقل التي لا تساوي ذرة مما في روحي من ألم الآن، أصعب ما يواجه المرء هو الضياع لا تعرف أي طريق تسلك، تسير بك قافلة الحياة إلى حيث المجهول، وددت لو يتوقف الزمن، لأخبر أمي بكل شيء، نعم أخبرها أن حسان قبل فمي في حقول القطن ومسك جدائلي، لفها على أصابع يديه كانت كالأفعى ويبتسم، يسحب جسدي منها كل ما هربت منه، ويعيدني إليه، لم يبدو مجنونًا حينها، لقد رأيت في عينه بريق رجل حقيقي، وددت لو يسمحوا لي وأعود وأخبرها

أننا نمنا على أكوام القطن، إنعكست زرقه السماء في عينينا، ضحكنا ومسكنا يدي بعض حتى غادرت طيور الحقل إلى أعشاشها، واقترب إبن آوى إلى القرية لاهثًا يبحث عن الدجاج يخدعه أن الحرية خارج القفص، ويقص له أن البشر أصحاب مصالح، لم يحبوا شيئًا إلا ليأخذوا منه شيئا ألذ وأجمل وكان كل عطائك البيض، لم نترك يدي بعض حتى خجلت الشمس مما نحن عليه ذهبت بسرعة خلف التلال وخلف شجيرات القطن الخائنة، نعم خائنة لأنها تحمل بياض القطن، وكانت شاهدة على نهايتي السوداء زور، لم تكن منصفه عندما كنت ألوذ بها ضائعة أبحث عن مكان أواري فيه لون الدماء على أناملي، كان وحده الليل وفيا حينما أتى مسرعًا ليستر تلك البقع على ثوبي، حتى ترعة الماء فضحتني فلم تحتفظ بسر وقفت ضدي حين توسلت قطرات الماء، أن تزيل تلك البقع بلا عودة ولم تفعل، كان ذلك اليوم الذي كتب نهايتي حينما سمحت لحسان أن يقترب مني لأول مرة كرجل وليس بمجنون،كنت أتذكر كل شيء دار معي هناك وأبكي بصمت حتى أنني نمت في السيارة وأنا أحتضن صرة الملابس بشدة، إستيقظت على صوت إغلاق باب السيارة، ترجلت المرأة البدينه التي كانت تجلس معي في الخلف، أعطاها الرجل الجالس في المقدمة نقود وذهبت، جلست ملاصقة للباب حتى نهاية الرحلة، مشت بنا السيارة حوالي ساعتين، شوارع ملتوية تكتظ بالناس وسيارات صغيرة وكبيرة متعددة الألوان، كنت أشاهد بدهشة، فجأة توقفت السيارة أمام بناية طويلة ترجل الرجل من المقعد الأمامي وفتح لي باب السيارة وهو يشير لي بالنزول منها، نزلت وأنا أتعثر بثوبي، دخلنا إلى البناية حتى وصلنا إلى باب بأزرار ملونه تلمسها الرجل فانفتح بسرعة أشار إلي بالدخول، دخلنا الصندوق المعدني فأُغلق من تلقاء نفسه،

تحرك بنا؛ فأحسست بدوار خفيف في رأسي؛ فأسندت نفسي إلى جدارة، لم يمر وقتاً طويلاً حتى توقف، لمس الرجل الأزرار مرة أخرى ففتح الباب، خرجنا منه إلى ممر طويل بعدة أبواب هو يمشي وأنا أتبعه، صار ملاذي الوحيد هذا الرجل في هذه البلدة الغريبة، توقف عند أحد الأبواب وضغط على زر أسود معلق بجانبه، ظننت أنه سيفتح من تلقاء نفسه مثل الصندوق الذي كنا فيه قبل قليل، لكن لم يفعل أعاد الضغط مرة أخرى؛ ففتحت الباب لنا امرأة، جميلة الهيئة والملابس، أشارت لنا بالدخول سريعاً وبقيت تلتفت يميناً ويساراً إلى الممر، دخلنا وأغلقت الباب بشدة، بقيت واقفة عند الباب أحمل صرة ملابسي بينما جلس الرجل على الأريكة، ودخلت هي إلى غرفة أخرى من منزلها، لم تتأخر أتت بسرعه قالت لي:

- أتبعيني عزيزتي

تبعتها فأدخلتني في غرفة فيها سرير وستائر جميلة، بقيت أنظر إلى ما في الغرفة، جلست على السرير، نظرت إلي وابتسمت ثم خرجت، مرت دقائق ودار في بالي سؤال هل ستزوجني هذة المرأه لهذا الرجل الذي يجلس هناك، لكن هو كبير في السن، فكرت في أن أسترق النظر وأرى ما يدور بينهم، تركت صرة ملابسي على السرير وذهبت بهدوء خلف الجدار أستمع لما يدور بينهم ، كان يقول لها:

- الى هنا أنتهت مهمتي، أنت تكفلي ببقية الأمر إنها عندك الآن، لم أتكلم بكلمة واحدة مع تلك المرأة التي أوصلتني إلى دارهم وأعطيتها النقود التي أمرت أن أعطيها لها دون أي كلام آخر، اللعينة كانت تظن أنني ساتزوجها كيف لعقلها أن يكون بهذا

التخلف، إنها بعمر الثانية عشر، جل أحلامها أن تحظى بدمية بشعر ذهبي.

كنت ألمس في كلامه أنه لن يتزوجني، تساءلت إذن لما أنا هنا؟ وهذه المرأه من تكون؟

عاودت المرأة الحديث مع الرجل وطلبت منه أن لا يخبر أحدا بأي شيء، وأعطته مبلغًا من المال، وهو أعطاها ورقة وقال لها أتصلي بي هذا رقم الهاتف إذا حدث أي شي جديد وغادر، لحقت به حتى الباب بعد أن غادر أغلقت الباب خلفه بأحكام، سارعت أنا الخطى إلى مكاني وجلست بهدوء على السرير، دخلت وجلست أمامي عند قدمي مسكت يدي بلطف، وقالت:

- كيف حالك، ما إسمك، هل أنت جائعة؟

أجبت

- بخير إسمي سعاد،لا... لست جائعة، من أنت وهل ذهب الرجل الذي سيتزوجني؟

ضحكت بلطف وقالت

- لا تخافي لا أحد سيتزوج، إهدأي، أنا العمة صفية

وصلنا إلى هنا الساعة الرابعة والنصف مساءا، والآن حان وقت المغرب، سمعت أصوات المآذن بقوة في كل مكان هنا، على عكس ماكان في قريتنا سوى صوت الشيخ عبد الحفيظ جارنا وهو يؤذن بلا مكبرات صوت، طلبت منها أن تأتي لي ببعض الماء لأتوضا وأصلي، طلبت مني أن أتبعها إلى الحمام، تبعتها فتحت لي صنبور الماء كان دافئًا وتوضأت كعادتي وصليت، وأنا أشتاق

إلى بروده مياه حوضنا عندما كنت أغتسل منه، أكملت صلاتي وأتت إلي ببعض الطعام إلى الغرفة أكلنا سوياً، طلبت منها أن تطفى الضوء أردت أن أنام فقد اعتدت النوم في الظلام منذ ثلاث ليال مضت، ذهبت وأطفأت الضوء كما أردت، وطلبت مني أن تنام بجانبي على السرير، ونتكلم، نمت وأفسحت لها المجال بجانبي إقتربت من حضنها وقلت لها:

- أخبريني أرجوك لما أنا هنا؟

قالت

- أتذكرين يا سعاد عندما كنت البارحة بعد الظهر عند الجدة؟ كنت هناك أنا أيضاً، متنكرة بنقاب، كنت أجلس قربك رأيت وجهك الجميل والبريء وسط هذا الخراب، عندما نادت الجدة على أمك أردت أن أعرف ماذا قالت لها الجدة، حتى أتت أمك وأدخلتك هناك إلى الستار، بقيت أنتظر أن تخرجي من هناك وبقيت أترقب وجه أمك المحفور في ذاكرتي منذ ثلاث عشرة سنه مضت، عندما أنقذتني من موت محتوم، كنت قريبه من الستار الذي تفحصتك به الجدة وسمعت مادار بينها وبين مساعدتها البدينه من كلام كانت تضحك وتقول أي جهل أن الأم لا تعرف أن ابنتها في أيام الطمث، ويضحكن بخبث، وددت لو أقتلهن وأخبر أمك أنك لازلتي عذراء، ولكن كيف ستصدقني وهي واثقه تمامًا أن كل ماتمليه الجدة هو صحيح وحتى لو تدخلت أنا ستتذكر وجهي الذي يذكرها في تلك الليلة التي هربت فيها من زواج حاكته لي زوجة أخي كريم من رجل يكبرني ضعف عمري، حيث كنت في السنة الرابعة والعشرون حتى تتخلص مني وتنفرد بأخي الذي أكلت عقله بحبها وتضع كل مانملك من مال في حسابها وحساب

ابنها المجنون، أرجعني أخي إلى البيت بعدما وجدني في محطة القطار أنتظر حبيبي ليأتي بعدما خططنا أن نهرب ونتزوج بعيداً، قال لي أنه سيقابلني هناك في الثامنة ليلاً ولم يأتي ولا أعرف أين هو إلى الآن منذ ثلاث عشرة سنة مرت، أمك كانت خادمة وفيه لنا تزوجها أبوك بعد أن كان البستاني في بيتنا هي من فتحت لي باب الغرفة تلك الليلة وهربت دون عوده إلى اليوم، لو لم تساعدني في الهروب لكنت تحت التراب الآن، حتى يغسل أخي كريم الذي لايرحم عاري كما يقول، عندما رأيتك هناك عند الجدة كان حسن حظك أنني سارعت وأعطيت مبلغا من المال للجدة وحددت ميعاد اليوم بعد الظهر أن سيتزوجها شخص من طرفي؛ جزء من رد الجميل لامك لكن دون أن تعلم؛ حتى تهدأ الأمور وأخذك إلى هناك وأقول لها كل شيء.

وهي تسرد لي قصة وجودي هنا أحسست أنها تتكلم لي عن السعادة، هل يعقل أن أعود إلى هناك إلى حيث أبي وأمي وأخواتي، نهضت بسرعه وقلت لها:

- هيا أرجوك فالنعد إلى هناك.

قالت:

- نعم سنعود ياسعاد لكن ليس اليوم، ستبقين هنا لأسبوع حتى أرتب بعض الأمور فكما تعرفين أنا غائبه عن هناك منذ فترة طويلة، أرأيت الرجل اليوم هو من يقوم برعايتي وقضاء بعض الأمور التي أوكلها له، ولا أخفي عليك لم يتبقى لدي الكثير من المال فقد دفعت نصف النقود إلى الجدة والنصف الآخر لمساعدتها البدينه اليوم، دفعت كل ما أملك من شغلي في تغليف الكتب التي يأتي بها هذا الرجل الذي رأيته هناك فهو صاحب المكتبة التي في

أسفل العمارة أثق به، كنت آخذ منه الصحف لثلاثة عشر سنه مضت حتى أقرأ خبرا عن حبيبي المفقود ولم أجده حتى الآن، كان يبحث معي حتى ظن أنني مجنونه من كثرة الأسئلة المتكررة التي أطرحها عليه، إلى أن سردت له قصتي، فقدت الأمل والتجأت إلى العرافين والسحرة؛ لعلي أجد خبرا عنه، وكانت الجدة هي آخر من زرتها لأعرف أين هو، لكن عندما رأيتك تركت كل شيء وحاولت أن أنقذك، فما ذنبك أن تكوني ضحية جهل أمك وخداع أشخاص كل همهم المال! الكذب والخزعبلات هي التي تتحكم في مجتمعنا، أنا على يقين أنك قطرة في بحر، الكثير من الفتيات ذهبن إلى دار البغاء بسبب ثمن تأخذة الجدة مقابل التجارة بتخلف أمهاتهن، أو أطفال صغار يموتون بسبب جرعة سامة تصنعها تلك الجدة من الأعشاب التي لاتعرف من أين أتت بها، رغم ذلك تقدس وتعظم، وهي تتكلم عن قصتها، رأت صفيه أن سعاد قد غطت بالنوم وهي تضع رأسها في حضنها وتمسك ثوبها بقوة، الثوب الذي ترتديه سعاد يجعلها كالدمية الجميلة وجدائلها الحريرية تنفرد على الوسادة، باتت صفيه معها حتى الصباح تحتضن إحداهما الأخرى كمن وجد قطعته الناقصة فكلتيهما ضحية مجتمع، بقيت سعاد عند السيدة صفيه لثلاثة ليال رأت فيها كل الحنان الذي فقدته، فقد عاملتها بلطف وأعطتها كل ما تملك من حب وساعدتها في تغليف بعض الكتب ووعدتها أنها ستعلمها الحروف والكتابة، فرحت واعتادت سعاد عليها، لكن الحنين إلى دارهم وأبيها وإخوتها كامل وهاني جعلها تتوسل صفيه أن تعود بها إلى المنزل، وافقت صفيه لكن بشرط أن ترسل أحدًا يتقصى أخبار القرية هناك، اتصلت بمحمود صاحب المكتبة وطلبت منه للمرة الأخيرة أن يسدي لها معروفاً ويذهب إلى هناك ويرى أحوال أهل سعاد، وافق ووعدها أن يكمل مابيده من عمل

وسيذهب غداً إلى القرية، فهو طالما يذهب إلى هناك ويأتي ببعض الأخبار لها من المعلم عادل الذي تعرف عليه حينما جمعهم حب الكتب والقراءة، فهو بحجة زيارته له يأتي بالأخبار لها عن أهلها من القرية، انتظرت سعاد الليل بطوله حتى يأتي الصباح ويذهب السيد محمود إلى هناك ويخبرها عن أحوال أهلها، عندما حل الظهر أعدت صفيه الطعام مع سعاد، رن هاتفها أسرعت إليه وأجابت وقالت بصوت خفيف لسعاد: انه السيد محمود، سعاد بجانبها تتوق إلى سماع الأخبار، لكن صفيه تغيرت ملامح وجهها بعد سماع الأخبار الحزينة من هناك أقفلت الخط وبقيت تمهد الطريق لتخبر سعاد أن أهلها جميعاً ماتوا بعد ليله من مغادرتها البيت، فقد والدها أعصابه في حقل القطن عندما رأى حسان وقت انتهاء العمل في ساعات العصر المتأخرة، وانهال عليه بالضرب المبرح في المجرفة حتى تركه ينزف في سواقي القطن حتى الموت، لكن أحد الحراس في الحقل رأى جثة حسان ووالد سعاد يركض هاربًا وثيابه ملطخة بالدم، لم يحتمل فراق صغيرته، وصار حسان مصدر ضعف اليه وهو دنس أعز مايملك سعاد، جن جنون السيد كريم عند سماعه أن البستاني أبو سعاد قتل ابنه الوحيد فلحقه إلى منزله، وجده وهو يحاول أن يهرب بعائلته، قتله السيد كريم بدم بارد ولم يكتفي بذلك بل أضرم النار في المنزل.

بكت صفيه على ما حل بأهل سعاد لكن لم تخبرها بذلك ، كيف ستخبرها؟ وهل ستحتمل طفله غادرت أهلها وهي مظلومة؟

وأعادت لها صفيه الفرحة على أمل لقائهم مجددًا لكن لم تكتمل الفرحة، بقيت سعاد تسأل عن أخبار القرية وصفيه تقول لا جديد، حتى رن الهاتف مجدداً ردت صفيه، إنه السيد محمود يخبرها أن

السيد كريم أخوها اخذته الشرطة بتهمة قتل أهل سعاد، مر الوقت طويلاً وصفيه تفكر أن تعود إلى القرية حتى تأخذ ما سرق من حقها وتعيش حرة ليست كالخفافيش متسترة من ظلم أخيها لها، جمعت أغراضها في صباح اليوم التالي وذهبت مع سعاد إلى القرية، وذهبت إلى بيت أهلها، واستردت كل حقوقها هناك، كان خبر موت أهل سعاد من أقسى الأمور التي واجهتها وهي تخبر بها سعاد، عاشت سعاد عند السيدة صفيه في دارها وحكم على أخيها كريم بالإعدام، وزوجته أخذت حقوقها ولم تأتي مجددًا، كتبت صفيه حقل القطن بإسم سعاد، سيكون تعويضًا بسيطًا لها عن ما فقدته وهي في سن صغيرة، عاملتها كأنها ابنتها التي لم تحظى بها مستقبلاً، فقد كان وفائها للحب عظيمًا بقيت تنتظر حبيبها المفقود، حتى علمت فيما بعد أن السيد محمود يعرف أن كريم من قتله ولم يقل لها حتى رجعت الى دارها؛ فاخبرها أنه كان يخشى عليها مواجهة أخيها كريم ويقتلها، بقيت سعاد تحلم كل ليله أن تطرق أمها الباب وتاخذها إلى احضانها وستسامحها عن كل شيء، وبعد ثلاث أشهر من الحادثه وأثناء تعليم صفيه القراءة والكتابة لسعاد واحتفالهم بغلق دار الجدة الى الأبد وسجنها بتهمة الشعوذة، طرق الباب، فتحته سعاد وإذا بامها مع أخوتها كامل وهاني، صُدمت بعد ما دخل اليأس قلبها بعدم عودتهم، كان لجار أهل سعاد الشيخ عبد الحفيظ الفضل بإنقاذ حليمه وأولادها حين خبأهم عنده قبل أن يحرق السيد كريم البيت، بعدما جائته ترتجف خوفاً، بقيت حتى الصباح ثم قبل الفجر ذهبت دون عودة حتى سماع خبر إعدام السيد كريم وعودة صفيه وسعاد بحوزتها، حين تجتمع عليك مرارة الفقر وآفة الجهل ومرض السلطة تسحق تحت أقدام الحياة، لكن لو اجتمع عليك كل ظلم الدنيا ويعرف الله بطهارة قلبك، أعلم أن لا ينصرك الا الله،

ستتعذب، ستبكي، سيدخل اليأس قلبك، ستدفع ثمنًا غاليًا في الدنيا، لكن سيعوضك الله بنصر لم تكن تحلم به ابدًا.